سلسلة كتب التصوف الإسلامى
الكتاب الثامن عشر

فيض الرحيم الرحمن

فى تفسير سورة الإنسان

«هل أتى»

بقلم :

حسن محمد سعيد الشناوى
من علماء الأزهر الشريف
شيخ مشايخ الطرق الصوفية
ورئيس المجلس الصوفى الأعلى
وشيخ الطريقة الشناوية

سلسلة كتب التصوف الإسلامى
الكتاب الثامن عشر

فيض الرحيم الرحمن

فى تفسير سورة الإنسان

«هل أتى»

بقلم :

حسن محمد سعيد الشناوى
من علماء الأزهر الشريف
شيخ مشايخ الطرق الصوفية
ورئيس المجلس الصوفى الأعلى
وشيخ الطريقة الشناوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحمن الرحيم الوهاب . وإليه المرجع والمآب . والصلاة والسلام على حبيب الأحباب وإمام الأنبياء ، من كانت رسالته هداية وإخراجا للناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان . من أرسله ربه هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين مادامت السموات والأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

«وبعد»

فمما أفاض الله عليّ ، وهدانى إليه تفسير سورة الإنسان وذلك على قدر طاقتى وهمتى . أهدى تفسير هذه السورة للقارىء العزيز علّها تكون نبراسا يضىء له ولى الطريق ، وعونا لنا جميعا على طاعة الله ورسوله . وأسأل المولى جل فى عليائه أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم متقبلا قبولا حسنا وأن يختم لنا جميعا بالإيمان إنه سميع مجيب .

حسن الشناوى

(٧٦) سُورَةُ الإنسان مدنية
وآياتها ٣١ نزلت بعد الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا
خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾
إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم
بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ

كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ
فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾
* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ
ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم
مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا
بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

تفسير سورة الإنسان

عدد آياتها إحدى وثلاثون آية بلا خلاف .

أسماؤها

تسمى سورة الدهر والأبرار والأمشاج وهل أتى ، فقد روى الإمام البخارى فى باب القراءة فى الفجر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر سورة «ألم» السجدة وسورة «هل أتى على الإنسان»

وهى فى بعض الآراء مدنية أو بعضها . ولكنها على الأصح مكية ومكيتها ظاهرة جدا فى موضوعها وسياقها ومقاصدها . ونلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى - يدل على ذلك صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الشديد كما يدل أيضا توجيه الرسول عليه السلام فى سياقها إلى الصبر لحكم ربه وعدم طاعة أى آثم أو كفور منهم . مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول ﷺ على الحق الذى نزل عليه من ربه بواسطة جبريل عليه السلام - وعدم الميل لما يدهنون به كما جاء فى سور القلم، المزمل ، المدثر مما هو قريب التوجيه فى هذه السورة .

من خصائصها

كثرة الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ، واثبات أن الخلق والإيجاد والحياة والموت من الله فقط لا من غيره ، مع إثبات أن هذا القرآن الذى أنزله الله تعالى منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما لتثبيت فؤاد الرسول عليه السلام وللرد على الأسئلة التى يسأل عنها سواء كانت استفسارا أو تعجيزا مع التحريض على مداومة ذكر الله تعالى وطاعته فيما أمر والابتعاد عما نهى . وكل هذه المعانى نجدها واضحة فى هذه السورة .

من مقاصدها

تذكير الإنسان بنعم الله سبحانه وتعالى عليه حيث خلقه من نطفة أمشاج وجعله

سميعا بصيرا وهداه السبيل ، مع انذار الكافرين سوء العاقبة إذ استمروا على كفرهم وإثبات أن هذا القرآن من عند الله تعالى ، وأمر الرسول ﷺ وأمته بالصبر على ما يعترض الإنسان من عقبات والإكثار من ذكر الله تعالى بكرة وأصيلا مع بيان أن حكمته سبحانه وتعالى قد اقتضت أنه سبحانه ﴿**يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما**﴾.

وتشتمل

على الكلام عن البعث وعلى خلق الإنسان وهدايته للخير والشر ثم بيان عاقبة كل منهما مع ذكر أعمال الأبرار وجزائهم .

بين يدى السورة

ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله تعالى فى خلق الإنسان فى أطوار وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة . حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**﴾.

ثم تحدثت عن النعيم المقيم الذى أعده الله تعالى فى الآخرة لأهل الجنة ﴿**إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا**﴾.

ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشئ من الإسهاب ، فوصفتهم بالوفاء بالنذر وإطعام الطعام ابتغاء مرضاة الله والخوف من عذابه . وذكرت أن الله تعالى قد أمنهم من شر ذلك اليوم العبوس الذى تكلح فيه الوجوه ﴿**يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾.

وأشادت بعد ذكر أوصافهم بما لهم عند الله تعالى من أجر جزيل وكرامة عالية فى دار البقاء وبما حباهم الله من كرمه من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿**وجزاهم بما**

صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ .

وتابعت السورة فى سرد نعيم أهل الجنة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا﴾ .

وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي أو فكر ثاقب يستضيئ بنوره ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ .

كما ختمت بأن مشيئة العبد لا تكون إلا بعد توجيه الله تعالى لعبده ومشيئة سبحانه وتعالى بعد علمه وحكمته ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ، يدخل من يشاء في رحمته ﴾ .

ثم ذكرت السورة تحذيرا صريحا واضحا لمن ظلم نفسه واتبع هواه مبتعدا عن أمر الله تعالى ومنهجه ﴿والظالمين أعد لهم عذابا أليما﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها

مناسبتها لما قبلها قوله سبحانه وتعالى فيما قبلها ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى﴾ ولأنه لما تم الاستدلال على البعث والقدرة عليه أتبعه بهذا الاستفهام التقريرى وهو ﴿هل أتى علي الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا .. الآيات ﴾.

* * *

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا﴾.

الشرح والبيان

﴿هل﴾ أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾

﴿هــل﴾ قد تكون بمعنى قد لتحقق الوقوع والمعنى تحقق مضى حين من الزمان لم يكن الإنسان فيه شيئا مذكورا ، كما تقول : هل رأيت صنيع فلان وقد علمت أنه رآه ، وتقول : هل أكرمتك ؟ هل أرشدتك ؟ وتقصد بقولك هذا أن تقرره بأنك قد أكرمته وأرشدته ، وهي هنا للتقريب أى تقريب الماضى من الحال ، فهى للتقرير والتقريب وقد تستعمل للجحد كأن تقول «هل يقدر أحد على مثل هذا» .

وقد تكون خبرا كأن تقول «هل أعطيتك أى بأنى أعطيتك» .

ولا يجوز هنا أن تكون للإستفهام عن مجهول للسائل ، لأن هل هنا صادرة من الله تعالى علمه محيط ولا يجوز الجهل لأنه محال على الله تعالى :

﴿أتى على الإنسان حين من الدهر﴾

﴿الإنسان﴾ المراد به «آدم عليه السلام» ويجوز أن يكون المراد بالإنسان الجنس .

(حين من الدهر﴾ الحين طائفة من الزمان محدودة شاملة للكثير والقليل ، والدهر الزمان الممتد غير المحدود ويقع على مدة العالم جميعا وعلى كل زمان طويل غير معين ، كما يجوز أن يكون المراد بلفظ الحين اليوم والليلة ، أو المراد بالحين مدة الحمل والإنسان من حيث هو إنسان قد مر عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه وهذا الحين لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿لم يكن شيئا مذكورا﴾ أى كان فى العدم ولم يكن له ذكر ولا وجود وذلك لحقارته وضعفه ، ويجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البحر والبر فى الأيام الستة التى خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام ، ويجوز أن يكون المراد لم يكن شيئا مذكورا لا فى السماء ولا فى الأرض أو كان جسدا مصورا وترابا وطينا لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا رسمه ولا المراد منه وبه ثم نفخ فيه الروح فصار شيئا مذكورا ، كما يجوز أن يكون المراد لم يكن شيئا مذكورا عند الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا فى الأزل ، وقد يكون المراد

بالذكر هنا الخطر والشرف والقدر ، تقول فلان مذكور أى له شرف وذكر وقدر ، وقد قال تعالى ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ أى قد أتى على الإنسان وقت لم يكن له قدر عند الخليقة ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التى عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان ظهر فضله وقدره على الكل فصار مذكورا ، كما يجوز أن يكون المعنى قد مضىٰ زمن من الدهر لم يكن آدم شيئا يذكر فى الخليقة لأنه آخر ما خلقه الله من أصناف الخليقة ، والمعدوم ليس بشئ لأن الله تعالى خلق آدم بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق حيوانا بعده .

وإذا كان المراد بالإنسان جنسه فيكون المراد بالحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان فى بطن أمه .

هذا الإنسان الذى خلق من العدم كيف خلق ؟؟ يقول الله تعالى مجيبا ومؤكدا .

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أى نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين وهو المنى ، الذى يخرج من صلب الرجل ويندفع وهو أبيض غليظ ويختلط بماء المرأة وهو أصفر رقيق ، فيخلق منهما الولد ، فما كان من عظم وعصب وقوة فهو من ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة .

وبعد اختلاط ماء الرجل بماء المرأة الذى فيه البويضة الأنثوية فيتكون منهما المخلوق العجيب . ثم ينتقل هذا الماء المكون من ماء الرجل وماء المرأة بعد ذلك من حال إلى حال ومن طور إلى طور ، وذلك بعد اختلاط ماء الرجل الأبيض الغليظ الذى فيه قوة العقد وماء المرأة الأصفر الرقيق الذى فيه قوة الانعقاد فيجمعهما الملك المخصص بأمر الله ، وتنقلهما القدرة من حال إلى حال حتى تنتهى إلى ما دبره من تقدير .

﴿أمشاج﴾ الأمشاج الأخلاط وذلك إشارة إلى أن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح ، وهذه الأخلاط تعنى الوراثات الكامنة فى النطفة والتى يسميها العلم الحديث «جينات» ، وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا ، وقد خلقت الإنسان يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج لا

عبثا ولا جزافا فكل شئ عنده تعالى بمقدار وتقدير فسبحان الذى أخبر فى كتابه على لسان رسوله ﷺ ما وصل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ؟؟.

لو شاء ربك لجعل الناس على نظام واحد وطريقة واحدة كلهم للخير أو كلهم للشر ، ولكنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولأجل ذلك خلقهم فبهم يعمر الكون وتكون الدنيا والآخرة والعمل والحساب .

وروي عن أبى أيوب الأنصارى : قال جاء حبر من أحبار اليهود إلى النبى ﷺ .فقال له آخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة ، فقال عليه السلام «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا علا ماء المرأة أنثت ، وإذا علا ماء الرجل أذكرت» فقال الحبر أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

﴿نبتليه﴾ أى لنختبره بالتكاليف الشرعية والأوامر الإلهية لننظر أيشكر فى السراء ويصبر فى الضراء أم يكفر ، وذلك حسب اختياره وارادته وهل يستقيم فى سيره أم ينحرف ويزيغ ، ويجوز أن يكون المراد نبتليه أى نكلفه بعد الخلق وتمام البلوغ بالعمل بعد الخلق ونكلفه بالدين ليكون مأموراً بالطاعة منهيا عن المعاصى ، وذلك لأن الإنسان قبل البلوغ غير مكلف . ويحتمل أن يكون المراد تصرفه فى بطن أمه من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة .. وهكذا .

﴿فجعلناه سميعا بصيرا﴾ أى فجعلناه بسبب ارادتنا ابتلاءه حين تأهله فى وقت التكليف له وخلقناه من عدم عاقلا مميزا . ذا سمع وبصر ليسمع الآيات التنزيلية ويبصر الدلائل الكونية والآيات الآفاقية ولينظر فى نفسه أيضا ليستدل بذلك على وجود الخالق سبحانه وتعالى الحكيم القدير . والله تعالى من رحمته أعطى الإنسان حواسا كثيرة أهمها السمع والبصر وهما كنايتان عن الفهم والتمييز كما قال تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام **﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾** .

وقدم سبحانه وتعالى السمع لأنه أنفع فى المخاطبات ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية .

وخصهما بالذكر لأنهما أنفع الحواس ولأن البصر يفهم البصيرة ، ولكن هل يكفى العقل وحده لإدراك الخير والشر ؟؟ لا ولهذا قال تعالى :

﴿إنا هديناه السبيل﴾ هذا تعليل لقوله تعالى : **«نبتليه»** وتفصيل لقوله تعالى **«فجعلناه سميعا بصيرا»** والمراد بالهداية هنا الدلالة إلى طريق الحق والارشاد إلى الطريق المستقيم ، أى بفضلنا واحساننا بينا ووضحنا للإنسان وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر وذلك ببعثة الرسل وانزال الكتب فأمن من آمن وكفر من كفر كقوله تعالى **«وهديناه النجدين»** ووضحنا وبصرنا كقوله تعالى **«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»** وبذلك أخبر سبحانه وتعالى أنه بعد أن خلقه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبل الهدى والضلال ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار ثم الإنسان باختياره إما يشكر وإما يكفر ولهذا قال تعالى :

﴿إما شاكرا وإما كفورا﴾ أى إما أن يكون مؤمنا شاكرا لنعمة الله فيسلك سبيل الخير والطاعة . وإما أن يكون شقيا فاجرا فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور فالله تعالى دل الإنسان على سبيلى الشكر والكفر وعلى الإنسان أن يختار سلوكه هذا أو ذاك ، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة المذكورة فى القرآن الكريم التى تدل على أن الإنسان له إرادة واختيار وهما مناط التكليف لقوله تعالى **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد .. ومن أراد الآخرة وسعي لها سعيها وهو مؤمن﴾** وكقوله تعالى **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** فلا إكراه لأحد ولا إجبار وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار .

ويجوز : أن يكون المعنى إنا هديناه ودللناه على ما يوصله إلى الصراط المستقيم فى حالتى شكره وكفره ، لأنه إن أخذ بهدايتنا كان شاكرا وإن أعرض عنها كان جاحدا وكافرا لنعمائنا ، فالهداية موجودة فى كل الأحوال إلا أن المنتفعين بها هم الشاكرون وحدهم .

ومثل ذلك كمثل رجلين يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة فأحدهما يسير فى هذا الطريق فينجو من العثرات والمتاعب والمخاطر والآخر يعرض عن ذلك فيهلك .

ولما كان الشكر قل من يتصف به كما قال تعالى **﴿وقليل من عبادى الشكور﴾** جاء التعبير بقوله سبحانه «شاكرا» بصيغة اسم الفاعل . ولما كان الجحود والكفر يعم أكثر الناس جاء التعبير بقوله تعالى «كفورا» بصيغة المبالغة .

وعبر سبحانه وتعالى عن الهدى بالشكر لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى وهو الخاطر الأول الذى يرد على قلب المؤمن ، فإذا لم يشكر فهو الكفور وهو الخاطر الثانى .

والمقصود من الآية الكريمة قفل الباب أمام الذين يفسقون عن أمر ربهم ويرتكبون ما يرتكبون من المعاصى والسيئات . ثم بعد ذلك يعلقون أفعالهم على قضاء الله وقدره ويقولون كما حكى القرآن الكريم عن المشركين **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ﴾** .

ثم بين سبحانه وتعالى بعد هذه الهداية ما أعده لفريق الكافرين فقال تعالى : **﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا﴾** ابتدأ سبحانه بذكر جزاء الكافر لأن ذكره هو الأقرب ولأن الفرض بيان جزائه على سبيل الاجمال ثم تفصيل القول بعد ذلك فى بيان جزاء المؤمنين .

والمعنى إنا هيأنا للكافرين المجرمين قيودا تشد بها أرجلهم والأغلال تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ، والأغلال جعلت فى أعناق أهل النار لا لأنهم أعجزوا الله سبحانه وتعالى ، ولكن جعل ذلك إذلالا لهم ، وسعيراً أى نارا موقدة مستعرة يحرقون بها لقوله تعالى **﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون﴾** .

ثم بعد هذا البيان الواضح بين سبحانه وتعالى ما أعده للأبرار والفجار في دار القرار فقال تعالى :

* * *

﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره

مستطيرا * ويطعمون الطعام علي حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا﴾ .

﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾ أى إن الذين كانوا فى الدنيا أبرارا بطاعتهم للجبار ، والأبرار هم الصادقون فى الإيمان الذين لا يؤذون الذر ولا يضمرون الشر المتوسعون فى الطاعة الصادقون فى إيمانهم المطيعون لربهم الذين سمت همتهم عن الأشياء الحقيرة فظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة ، وهم أهل الصدق والوفاء والمحبة لله والإخلاص فى العبادة لوجه الله الذين يؤدون حق الله كاملا الموحدون الصادقون .

والأبرار : جمع بر وسموا بهذا الاسم للاشعار بما استحقوه وما نالوه من الكرامة والتكريم .

﴿يشربون من كأس﴾ أى كأس من الخمر وقيل الكأس هى نفس الخمر ، وإذا كان بها الخمر سميت كأسا وإذا كانت الكأس فارغة لا تسمى خمرا ، وهذه الخمر التى بالكأس ليست كخمر الدنيا التى تغتال العقول والأجسام .

﴿كان مزاجها كافورا﴾ الضمير فى مزاجها يعود إلى الكأس التى بها الخمر والمراد بمزاجها خليطها من المزج بمعنى الخلط ، يقال مزجت الشئ بالشئ إذا خلطته به، الكافور من أنفس أنواع الطيب وهو معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب ، وهذا الكافور المراد به ليس كافور الدنيا بل هو شبيه به لأنه اسم عين ماء فى الجنة يقال له عين الكافور طيب طعمها طيب رائحتها وفوحان شذاها كالكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون شرابا ، وسمى الله ما فى الجنة بأسماء ما فى الدنيا تقريبا للأذهان وترغيبا وشحذاً للهمم فى تحصيل أسباب نيل تلك العطايا .

والمعنى : إن المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله تعالى الطاعة والعبادة والشكر يكافئهم سبحانه وتعالى على ذلك بأن يجعلهم يوم القيامة فى جنات عالية قطوفها دانية

ويتمتعون بالشراب من الخمر المخلوطة بالكافور الذى تنتعش له النفوس وتحبه الأرواح والقلوب لطيب رائحته وجمال شكله .

وذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء فى هذه السورة من الكافور والزنجبيل وغيرهما لتحريض العقلاء على الظفر فى الآخرة بهذه المتع التى كانوا يشتهونها فى الدنيا على سبيل تقريب الأمور لهم ، وإلا فنعم الآخرة لا تعد ولا تحصى ولا يقاس ما بها بنعيم الدنيا .

قال ابن عباس : كل ما ذكر فى القرآن الكريم مما فى الجنة وسماه ، ليس له من الدنيا شبيه إلا فى الاسم ، فالكافور والزنجبيل والأشجار والقصور والمأكول والمشروب والملبوس والثمار والأنهار لا يشبه ما فى الدنيا إلا فى مجرد الاسم .

وروى عن عمر أن النبى ﷺ قال «إنما سماهم الله تعالى الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالديك حقا كذلك لولدك عليك حقا» .

﴿ عينا يشرب بها عباد الله﴾ أى منها وهو محمول على المعنى أى يتلذذ بها أو يروى بها ، وإنما قال تعالى أولا بحرف من وثانيا بحرف الباء لأن الكأس مبتدأ شربهم وأول غايته وأما العين فبها يمزجون شرابهم ، فكأنه قيل يشرب عباد الله بها ، الخمر ، ووصفهم الله تعالى بالعبودية تكريما لهم وتشريفا بإضافتهم إليه ، والمراد بعباد الله المؤمنون المتقون .

﴿يفجرونها تفجيرا﴾ أى يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور ، والتفجير هو الاتباع كما قال تعالى **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾** وقال تعالى **﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾** والمراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم .

روى أبو مقاتل عن أبى صالح عن سعد عن أبى سهل عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع عيون فى الجنة عينان تجريان من تحت العرش أحدهما التى ذكر الله «يفجرونها تفجيرا » والأخرى الزنجبيل . والآخريان نضاختان من فوق العرش أحدهما التى ذكر الله «عينا فيها تسمى سلسبيلا» والأخرى «التسنيم» فالتسنيم للمقربين

خاصة شربا لهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج ، والأبرار هم الصادقون والمقربون هم الصديقون .

ولما ذكر سبحانه وتعالى ثواب الأبرار بين صفاتهم الجليلة التى يستحقون بها ذلك الأجر الجزيل ذكر فى آيات متعددة الأسباب التى من أجلها وصلوا إلى النعيم الدائم فى يوم الجزاء فقال تعالى : ﴿**يوفون بالنذر**﴾ أى يوفون بما قطعوه على أنفسهم من نذور فى طاعتهم لله تعالى لأنهم إذا نذروا طاعة فعلوها .

والنذر : هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل فإذا نذر بر بالوفاء لله تعالى . والنذر يكون فى طاعة الله تعالى من جنس ما فرضه . من صلاة وزكاة وحج وصيام وصدقة والنذر من باب المبالغة بأداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى .

ويجوز أن يفسر النذر بأنه إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه ، أى يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه عن أنفسهم بطريق النذر .

ولا ثناء أبلغ من هذا كما أنه لا فعل أفضل منه . فإن الله تعالى قد ألزم عبده وظائف وربما عجز العبد عن القيام بما فرض الله عليه ، فنذر على نفسه نذرا فيتعين عليه الوفاء به أيضا فإذا قام بحق الأمرين وخرج عن واجب النذرين كان له من الجزاء ما وصفه الله فى آخر السورة .

ولقائل أن يقول ما لهم يرزقون ذلك . فكأنه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية . فقيل : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم فكيف بما أوجبه الله عليهم .

ولقد ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت إن رسول الله ﷺ قال «من نذر أن يطع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» .

﴿**ويخافون يوما كان شره مستطيرا**﴾ أى ويخافون هول يوم عظيم أهواله وشدائده ، وفى ذلك إشارة لحسن عقيدتهم وفعلهم الطاعات واجتنابهم المعاصى .

هذا اليــوم نكَّره المولى ووصف بأن له شرا مستطيرا لتهويل أمره وتعظيم شأنه حتى يستعد الناس لاستقباله بالإيمان والعمل الصالح - ومستطيرا اسم فاعل من استطار الشئ إذا انتشر أى عذابه فاشيا منتشرا غاية الانتشار ، فاشيا فى السماوات فانقشعت وصارت كالمهل وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نسفت الجبال وصارت كالعهن المنفوش وغارت المياه وتكسر كل شئ على الأرض من جبال وأبنية .

* ثم وصفهم الله تعالى بصفات أخرى فقال :

﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ أى ويطعمون الطعام مع شهوتهم واحتياجهم إليه كقوله تعالى **«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»** .

ويجوز أن يكون المراد على حب لإطعام بأن يكون ذلك بطيب نفس أو على حب الله أى اطعاما كائنا على حب الله حبا صادقا لا رياء فيه .

وهذا الوصف من باب التكميل فقد وصفهم أولا بالجود والبذل والسخاء وكمله بأن ذلك عن إخلاص لا رياء فيه .

وهذا تنبيه على المواساة ومن أفضل المواساة وضعها فى هذه الأصناف الثلاثة .

وفى الصحيح عن عبدالله بن عمر : سئل رسول الله ﷺ ، أى الإسلام خير؟؟ قال «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وهذا فى الفضل لا فى الفرض من الزكاة .

«أسباب نزول هذه الآية»

قال عطاء هذه الآية نزلت فى على رضى الله عنه وذلك أنه أجر نفسه ليلة ليسقى نخلا بشئ من شعير حتى أصبح وقبض الشعير وطحنوه وجعلوا منه شيئا ليأكلوه يقال له الحريرة فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام ، ثم صنع الثلث الثانى فلما تم نضجه أتى يتيم فأطعموه ، ثم صنع الثلث الثالث فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك فأنزل الله فيهم هذه الآيات .

أخرج ابن عساكر عن مجاهد أنه قال لما صدر - أى عاد عليه السلام ، منتصرا من غزوة بدر - النبى ﷺ بالأسارى من بدر أنفق سبعة من المهاجرين ، أبو بكر ، عمر ، علي والزبير ، عبدالرحمن وسعد ، أبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركى بدر فقالت الأنصار قتلناهم فى الله وفى رسوله ﷺ وتعينونهم بالنفقة فأنزل الله تعالى فيهم تسع عشرة آية : إن الأبرار يشربون إلى قوله تعالى عينا فيها تسمى سلسبيلا .

وفى هذا دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن ويرجى ثوابه .

عن الحسن رضى الله تعالى عنه أنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول «أحسن إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه .

ورد عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبا فأرسلت صفية زوجته واشترت عنقودا بدرهم فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل سائل فقال ابن عمر اعطوه إياه فأعطوه إياه ، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودا فاتبع الرسول سائل فلما دخل قال السائل سائل ، فقال ابن عمر أعطوه إياه فأعطوه إياه ، فأرسلت صفية إلى السائل فقالت والله إن عدت لا تصيب منه خيرا أبدا ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به .

وفى الصحيح «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر» أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه .

والصحيح من الأقوال أنها نزلت فى جميع الأبرار وفى كل من فعل فعلا حسنا فهى عامة .

وخص سبحانه وتعالى هؤلاء الثلاثة بالذكر لأنهم أولى الناس بالرعاية والمساعدة .

﴿مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ أى فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا وهو عاجز عن الكسب والاكتساب ويتيما وهو من مات أبوه وهو صغير فعدم الناصر والكفيل ، وأسيرا وهو من أسر فى الحرب من المشركين .

ويذلك نبه سبحانه وتعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام فى سد جوعتهم وجوعة من يعولون يطيبون نفسا عن الطعام للبؤساء ويؤثرونهم به على أنفسهم كقوله تعالى **«ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»** .

وفي إطعام الأسير ثواب عظيم وإن كان كافرا فإن الله يرزقه ، وقد تعين بالعهد إطعامه ولكن من الفضل فى الصدقة لا من الأصل فى الزكاة ، ويدخل فيه المسجون من المسلمين فإن الحق قد حبسه عن التصرف وأسره فيما وجب عليه فقد صار له على الفقير المطلق سراحه حق زائد بما هو عليه من المنع فى المعاش أو التصرف فى الطلب . وكل ذلك دون توقع مكافأة للمعطى فإذا لم يشكر المعطى المعطى فسخط المعطى حبط ثوابه .

ويدخل فى الأسير الغريم وهو من عليه مال لك لأن الرسول عليه السلام سمى الغريم أسيرا فقال «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» .

وخص سبحانه وتعالى هؤلاء الثلاثة بالذكر لأن المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه لما يكفيه ، واليتيم مات من يكتسب له وبقى عاجزا عن الكسب لصغره – والأسير لا يملك لنفسه نصرا ولا حيلة .

﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ أى إنما نفعل ذلك لشدة اخلاصنا لخالقنا ولطهارة نفوسنا من الأحقاد والأضغان – أى قائلين ذلك بلسان الحال لا بلسان المقال لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر ، ويجوز أن يكون ذلك بيانا من الله تعالى عما فى ضمائرهم لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئا .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ، ثم تسأل رسول الله ما قالوا فإذا ذكر دعاهم دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى .

﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ أى لا نبتغى من وراء هذا الإحسان مكافأة ولا جزاء بالأفعال ولا نقصد الحمد منكم أى ولا شكرا وثناء بالأقوال ، وما قالوا ذلك

بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم ليرغب فى ذلك كل راغب فى ثواب الله وعطائه .

﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ أى إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد تعيش فيه الوجوه من فظاعة أمره وشدة هوله وأن يرحمنا ربنا فى هذا اليوم العبوس القمطرير ويتلقانا بلطفه وفضله وكرمه . والعبوس بضم العين بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين أى الذى يجمع ما بين عينيه .

ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، ويجوز أن يكون عبوسا تشبيها بالأسد العبوس على أنه من الاستعارة المكنية التخيلية .

{فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ الفاء للسببية أى فبسبب وفائهم بالنذر وخوفهم من عذاب الله وبسبب سخائهم واخلاصهم ترتب على كل ذلك أن حماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته وأمنهم مما خافوا منه .

﴿ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ أى وأعطاهم نضرة وحسنا فى الوجه وسرورا فى القلب ، بمعنى أنه سبحانه وتعالى أعطاهم نضرة وهى البياض فى الوجه والحسن والبهاء ، وأثر النعمة بدل عبوس الفجار الكفار وحزنهم ، وسرورا أى فرحا فى قلوبهم بدل خوفهم .

●●●

﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها علي الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴾ .

﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾ أى وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الجوع والطاعة وبصبرهم عن فعل المعصية والايثار بالمال جنة واسعة وألبسهم فيها الحرير الذى كان محرما على الرجال فى الدنيا كما قال تعالى ﴿ولباسهم فى حرير﴾ .

ويجوز أن يكون المراد بقوله تعالى ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ أى بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات وإيثار الأموال مأكلا وملبساً

ويصبرهم على الفقر أو الصوم أو الجوع ثلاثة أيام وهى أيام النذر .

جنة يأكلون منها ما شاءوا ويتمتعون فيها بالحور العين وبما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفي الآية إيجاز أخذ بأطراف الإعجاز فقد أشار الله تعالى بقوله «جنة» إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار فى دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار والمطاعم والمشارب الهنيئة ، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة والسرور كما قال تعالى **﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾** .

وأشار سبحانه بقوله «حريرا» إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس التى من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير ، وبذلك جمع سبحانه وتعالى لهم أنواع الطعام والشراب واللباس وهو قصارى ما تتطلع له نفوس الناس .

ولقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال «الصبر أربعة أولها الصبر عند الصدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض والصبر على اجتناب محارم الله والصبر على المصائب » .

أسباب نزول هذه الآية

نزلت فى سيدنا على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وجاريتهما فضة ، لما مرض الحسن والحسين نذروا صوم ثلاثة أيام ، فاستقرض سيدنا على رضى الله عنه من يهودى ثلاثة أصوع من الشعير فطحنت السيدة فاطمة كل يوم صاعا وخبزت ، فآثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكينا ويتيما وأسيرا ولم يذوقوا إلا الماء فى وقت الإفطار .

ولما ذكر سبحانه طعامهم وشرابهم أخبر عن نعيمهم وما هم فيه من النعيم فى الجنة وما أسبغه عليهم من الفضل العميم فقال :

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أى مضطجعين فى الجنة على الأسرة المزينة بأحسن زينة وبالستور ، وخصهم سبحانه بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعم .

﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ أى لا يجدون فى الجنة حرا يؤذيهم ويضرهم ولا زمهريرا أى بردا مفرطا يضر وإنما هو نسمات تهب من العرش تحيى الأنفاس . ولأنه لا شمس فيها ولا زمهريرا فظلها دائم وهواؤها معتدل لا حر شمس يحمى ولا شدة برد تؤذى .

وفي الحديث «هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر» .

●●●

﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا ﴾ .

«ودانية عليهم ظلالها» : أى ظلال أشجارها فى الجنة قريبة من الأبرار .

فإن قيل : كيف يوصف ظلها أى ظل ما فيها من الأشجار مع أن الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس ولا شمس فى الجنة حتى يظل أهلها ما فيها من الأشجار .

أجيب : أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كانت هناك شمس لكان ظل تلك الأشجار قريبا منهم . وإنما المراد ظل الضوء كظل ضوء القمر .

والمراد : بيان حال الأبرار فى الجنة وأنهم جالسون جلسة ناعم البال المنشرح الصدر وظلال أشجار الجنة قريبة منهم ومحيطة بهم زيادة فى إكرامهم..

﴿وذللت قطوفها تذليلا﴾ : ذللت من تذليل الصعب بمعنى الانقياد والتسخير والمعنى أدنيت وسخرت ثمارها لهم وسهل أخذها فإذا كان الإنسان قائما تناول الثمر دون كلفة ، وكذلك إن كان قاعدا أو مضطجعا فهذا تذليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك . لأن من يريد تعاطى ثمر هذه الأشجار دنا الثمر إليه وتدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع كما قال تعالى **«وجنى الجنتين دان»** وكقوله **«قطوفها دانية»** .

ولما وصف سبحانه وتعالى طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم فقال:

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة﴾ يطاف من الطواف وهو السعى المكرر حول الشئ . ومنه الطواف بالكعبة . والآنية جمع إناء وهو اسم لكل وعاء يوضع فيه الطعام والشراب .

والمعنى : يدور عليهم الخدم بالأوانى الفضية فيها الطعام والشراب على عادة أهل الشرف والنعيم فى الدنيا فيتناول كل واحد منهم حاجته وهذه الأوانى هى الصحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى **«ويطاف عليهم بصحاف من ذهب»** ولا منافاة بين الآيتين فتارة يسقون بهذا وتارة بتلك.

﴿وأكواب كانت قواريرا﴾ : أى أكواب وهى الأقداح رقيقة شفافة كالزجاج فى صفائه أوجدها الله تعالى بقدرته فيكون تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها وشفافية القوارير وصفائها . والمراد بالكينونة فى قوله كانت أنها تكونت ووجدت على هذه الصفة .

هذه القوارير : عبارة عن أكواب بلا عرى فيسهل الشرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول إلى إدارته .

والمراد بأكواب : كانت قواريرا أى فى صفاء القوارير وبياض الفضة فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضة يرى من ظاهرها ما فى باطنها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس فى الجنة شئ إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة لأنك لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح البعوضة لم تر من ورائها الماء ولكن قوارير الجنة من الفضة وفى صفاء القوارير .

﴿قوارير من فضة﴾ : أى هى جامعة بين صفاء الزجاج وحسن الفضة .

﴿قدروها تقديرا﴾ : أي قدرها السقاة على مقدار شهوات الشاربين إذا لا عطش فى الجنة وعلى قدر حاجة الشاربين لا تزيد ولا تنقص وذلك ألذّ وأشهى . بل هى معدة لذلك مقدرة بحسب رغبة صاحبها . ثم بين سبحانه وتعالى محاسن شراب أهل الجنة فقال : **﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا﴾** : أى يسقى هؤلاء الأبرار فى الجنة كأسا من الخمر الذى ليس كخمر الدنيا ممزوجة بالزنجبيل . والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته . فرغبوا فى نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة وهذا الزنجبيل ليس كزنجبيل الدنيا يلدغ الحلق وتصعب إساغته ، وبهذا يكون شراب الجنة فى برد الكافور مع طعمه وطعم الكافور مضافا إليه مع ريح المسك من غير لدغ . وبذلك يرغب المولى سبحانه وتعالى الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شئ وألذه وأطيبه مما يعرفونه فى الدنيا ليرغبوا ويعوا ويعملوا لما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم .

ويجوز : أن يكون الزنجبيل المذكور يخرج من عين فى الجنة يشرب منها المقربون صرفا وتمزج لسائر أهل الجنة .

وزنجبيل الدنيا : نبت ينبت فى أرض عمان وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجر . ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الأجود وقد رأيت نباته فى جزيرة مدغشقر أثناء إقامتى بها بعينى رأسى .

﴿عينا فيها تسمى سلسبيلا﴾ : السلسبيل اسم لهذه العين لقوله تعالى «تسمى» أى أنها مذكورة عند الملائكة والأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم .

وسميت : سلسبيلا لأنها تسيل عليهم فى الطرق وفى منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان ، وهى لسهولتها وسهولة مساغها تنحدر فى الحلق بلا غضاضة .

ووصف : هذا الشراب بأنه السلسبيل لأن ذلك الشراب يكون فى طعم الزنجبيل

وهو سهل الجريان فى الحلق لعذوبته وصفائه وليس فيه لذعة الزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحراقته فيبقى الشراب سلسبيلا سهل المذاق فى الحلق .

★★★

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا *﴾

ثم وصف سبحانه وتعالى بعد ما تقدم خدم أهل الجنة الأبرار فقال :

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ : أى ويدور على هؤلاء الأبرار بالشراب غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين في الجنة . وهؤلاء الغلمان فى سن من هو دون البلوغ ، ويجوز أن يكون هؤلاء الغلمان ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدما لأهل الجنة كما يرد أنه يكون هؤلاء الغلمان أطفال المؤمنين لأنهم ماتوا على الفطرة قبل بلوغهم سن التكليف يلحقون بآبائهم تأنسا وسرورا بهم .

ـ **﴿مخلدون﴾** : هذا اللفظ «مخلدون» للإحتراس المقصود منه دفع توهم أنهم سيصيرون في وقت من الأوقات كهولا ، بل سيكون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يموتون ويكونون على سن واحدة على مر الزمان .

﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا﴾ : أى إذا نظرت إليهم وهم منتشرون فى الجنة لخدمة وقضاء حوائج السادة البررة حسبتهم وظننتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم واشراق وجوههم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم لبعض كاللؤلؤ الذى لم يثقب وهو أشد صفاء وأحسن منظرا مما ثقب لأنه إذا ثقب نقص صفاؤه . وما

لم يثقب لم يكن إلا منثورا واللؤلؤ إذا انتثر على البساط كان أصفى منه منظوما . وهم بهذه الحالة أسرع فى الخدمة من الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون الذى لا يمتهن بالخدمة .

وهـــذا : من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقا يكون أحسن فى المنظر لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أروع وأبدع وأحسن فى المنظر .

﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا﴾ :

«سبب نزول هذه الآية»

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : دخل عمر رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو راقد على حصير من جريد وقد أثر فى جنبه . فبكى عمر فقال له عليه السلام ما يبكيك ؟! قال ذكرت كسرى وملكه وهرمز وملكه وصاحب[1] الحبشة وملكه وأنت رسول الله صلى الله عليك وسلم على حصير من جريد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة»

فأنزل الله تعالى : «**وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا**» .

والمعنى : إذا رأيت يا محمد ويجوز أن يكون خطابا لمن يدخل الجنة ثم أى هناك فى الجنة ونعيمها وسعتها وما فيها من السرور ومظاهر الأنس رأيت نعيما وهو سائر كل ما يتنعم به . ونكر لفظ نعيما أى لا زوال له «وملكا كبيرا» أى واسعا والمراد امتداده فى الطول والعرض وفى الحديث القدسى «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» . ويروى فى الحديث الصحيح أن أقل أهل الجنة منزلة من له قدر الدنيا وعشر أمثالها . فإذا كان هذا عطاءه سبحانه وتعالى لأدنى من يكون فى الجنة فما ظنك بمن هو أعلى منزلة .

ويجوز أن يكون الملك الكبير هو الملك الذى لا يعقبه هلك . أو لهم فيها ما يشاءون أو تسلم عليهم الملائكة ويستأذنون فى الدخول عليهم ، لقوله تعالى « **والملائكة**

يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» أو كون التيجان على رؤوسهم كما كانت على رؤوس الملوك فى الدنيا أو ملك التكوين فإذا أرادوا شيئا قالوا كن فيكون .

ثم زاد وفصل سبحانه وتعالى جانبا من مظاهر هذا النعيم العظيم ووصفه بقوله :

﴿عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق﴾ : أى تعلوهم الثياب الفاخرة الخضر المزينة بأنواع الزينة من الحرير الرقيق - وهو السندس - والحرير السميك وهو - «الاستبرق» فلباسهم فى الجنة الحرير الذى كان محرما عليهم فى الدنيا كما قال تعالى : **«ولباسهم فيها حرير»** وهذا هو لباس الأبرار .

وإنمـــا : قال تعالى «عاليهم» لينبه أن لهم عدة من الثياب ولكن يعلوها السندس والاستبرق فتكون أفضلها .

وكانت : تلك الملابس من اللون الأخضر لأنها أبهج للنفس .

والمعنى إجمالا أن هؤلاء الأبرار أصحاب النعيم المقيم والملك الكبير فوق أجسادهم ثياب من أفخر الثياب لأنهم يجمعون فى لباسهم بين الحرير الرقيق والحرير الغليظ على سبيل التنعيم والجمع بين محاسن اللباس .

﴿وحلوا أساور من فضة﴾ : بيان لما يتزينون به فى أيديهم أى هؤلاء الأبرار يلبسون فى أيديهم أساور من فضة كما هو الشأن فى ملوك الدنيا للزينة والحلية .

وعبر بالماضى : إشارة إلى تحقق وقوعه كما فى قوله تعالى **«أتى أمر الله فلا تستعجلوه»** فلتحقق وقوع يوم القيامة عبر عنه بلفظ الماضى «أتى» .

فإن قيل : كيف قال هنا **«أساور من فضة»** وفى سورة الكهف **«يحلون فيها من أساور من ذهب»** وفى سورة فاطر **«يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا»** وفى سورة الحج كذلك .

فالجواب : أنهم تارة يلبسون الذهب فقط وتارة يلبسون الفضة فقط وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون . ويمكن أن يجمع فى يد أحدهم اسورة الذهب والفضة واللؤلؤ ليجتمع لهم محاسن أهل الجنة ولكل ما تميل إليه نفسه .

﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ : أى سقاهم الله تعالى – فوق ذلك النعيم – شرابا طاهرا لم تدنسه الأيدى والأرجل ليس برجس كخمر الدنيا لأن كونها رجسا بالشرع لا بالعقل ولا تكليف فى الجنة . هذا الشراب لم يعصر فتمسه الأيدى الوضرة ولا الأقدام الدنسة .

وأضيف لفظ وسقاهم : إلى لفظ الجلالة للتشريف والتخصيص لأن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبولهم منهم ، ويقولون لقد طال أخذنا من الوسطاء فإذا هم بكاسات تلاقى أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد .

فإن قلت : أى شرف لتلك الدار «الجنة» ، مع أنه تعالى سقاهم فى الدنيا كما قال «**وأسقيناكم ماء فراتا**» أى عذبا .

فالجواب : إن المراد أنه سقاهم من غير واسطة بل مباشرة .وشتان بين الشرابين .

﴿طهورا﴾ : أى نوعا آخر ولذلك أسند سقيه إلى الله تعالى . ووصفه بالطهورية لأنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهو منتهى درجات الصديقين . ولأنه لا يستحيل بولا نجسا قذرا ولكنه يكون رشحا من أبدانهم كرشح المسك ، وذلك لأنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فتطهر بطونهم وتضمر بطونهم وتعود شهوتهم .

قال سيدنا على رضى الله عنه وكرم وجهه فى قوله تعالى «**وسقاهم ربهم شرابا طهورا**» إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تتشعث

أشعارهم أبدا ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما فى بطونهم من الأذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» .

وقال مقاتل رضى الله عنه : هو ماء عين على باب الجنة من ساق شجرة ، من شرب منه نزع الله تعالى ما كان فى قلبه من غل وحقد وغش وحسد وما كان فى جوفه من قذر وأذى .

ويجوز أن يكون المراد : الشراب الروحانى لا المحسوس وهو عبارة عن التجلى الربانى الذى يسكرهم عما سواه . قال الشاعر :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء ∴ ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويحكى : أنه سئل أبو يزيد البسطامى عن هذه الآية فقال : سقاهم شرابا طهرهم به عن محبة غيره ، ثم قال : إن لله تعالى شرابا إدخره لأفاضل عباده يتولى سقيهم إياه فإذا شربوا طاشوا وإذا طاشوا طاروا وإذا طاروا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ثم ختم سبحانه وتعالى هذا العطاء الواسع العظيم ببيان ما ستقوله الملائكة لهؤلاء الأبرار على سبيل التكريم والتشويف فقال :

﴿إن هذا كان لكم جزاء﴾ : هذه الآية الكريمة مقولة لقول محذوف والقائل هو الله تعالى أو ملائكته بأمره وإذنه جل وعلا .

أى يقال للبررة بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها . هذا النعيم مقابل أعمالكم الصالحة فى الدنيا قد إدخره الله تعالى وأعده لكم إلى هذا الوقت .

يقال لهم ذلك : تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله تعالى «**كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية**» وكقوله : «**ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**» وذلك عند تمتعهم بكل ما سبق من النعيم أى هذا النعيم كان لكم جزاء على إيمانكم وعملكم الصالح فى الدنيا .

﴿وكان سعيكم مشكورا﴾ : أى وكان عملكم مقبولا مرضيا عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لا نريد منكم جزاء ولا شكورا جوزيتم عليه أحسن الجزاء مع الشكر والثناء .

يقال لهم : ذلك ليزدادوا سرورا فإنه يقال للمعاقب هذا بعملك الردئ فيزداد غمة وللمثاب هذا بعملك الحسن وطاعتك فيزداد سرورا ويكون ذلك تهنئة له .

ويقال لهم من : قبل الله تعالى غفر الله لكم الذنب وشكر لكم الحسنى فإنه سبحانه وتعالى إذا قبل العمل شكره فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم .

وروى عن ابن عمران رضى الله عنه أن رجلا حبشيا قال يا رسول الله فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة . أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت أكائن أنا معك في الجنة . قال «نعم والذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام» . ثم قال عليه السلام «من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عهد ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وعشرون ألف حسنة» فقال الرجل كيف نهلك بعدها يا رسول الله فقال «إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله فتجيئ النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطف الله برحمته» . قال ثم نزلت هل أتى إلى قوله وملكا كبيرا . قال الحبشى يا رسول الله : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة . فقال عليه السلام «نعم» فبكى الحبشى حتى فاضت روحه .

قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه فى حفرته ويقول «إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا» قلنا يا رسول الله وما هو قال : «والذى نفسى بيده لقد أوقفه الله . ثم قال أىْ عبدى لأبيضنَّ وجهك ولأبوئنك من الجنة حيث شئت . فنعم أجر العاملين» .

وبعد هذا الوضوح والبيان كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصد والإعراض والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عليه السلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتألم ويحزن لموقف المعاندين . لذلك جاءت الآيات تشد من أزره وتشد من عزيمته وتسليه وتخفف عن قلبه الشريف آثار الهم والضجر ، وتثبت النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفى دعوته إلى المداومة على التحلى بالصبر والتخلى عن الضجر وإلى الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى ..وأنذرت الكافرين والفاسقين إذا ما استمروا فى ضلالهم فقال سبحانه وتعالى :

﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا * واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا *﴾

﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ جاء قوله تعالى «إنا نحن نزلنا .....» مؤكدا بجملة من المؤكدات منها «إنا» و«نحن» وتنزيلا ...» للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله تعالى وقالوا فى شأنه «لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين» .

والمعنى إنا نحن وحدنا أيها الرسول الكريم الذين أنزلنا عليك القرآن تنزيلا محكما ، وفصلناه تفصيلا متقنا بأن أنزلناه على قلبك مفرقا على حسب مشيئتنا وحكمتنا لتذكرهم به ، يا محمد أنزلنا عليك هذا القرآن مفرقا لتذكرهم بما فيه من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وفصلناه بحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معين فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر فالقرآن وحده وعده صدق .

والمقصود بذلك : تثبيت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره وأن الذى أنزل عليه وحى وليس بكهانة ولا سحر لنزول الوحشة الحاصلة له عليه السلام أنه

كهانة وسحر ، وأن هذا القرآن ما افتريته ولا جئت به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدعيه المشركون .

ولهذا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : أنزل الله القرآن متفرقا آية بعد آية ولم ينزله جملة واحدة . لذلك قال «نزلنا» ولم يقل أنزلنا .

ولذلك : يقول الله تعالى ممتنا على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلا .

﴿فاصبر لحكم ربك﴾ : أي يا محمد كما أكرمتك بما أنزلت عليك من القرآن فاصبر لحكم ربك وقضائه وقدره ، وأعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره وسينتقم منهم ويقر عينك بإهلاكهم إن عاجلا أو آجلا ، واصبر لحكم ربك عليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذى وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة فإن العاقبة لك حميدة .

﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾
«سبب نزول هذه الآية»

أخرج عبدالرازق وابن المنذر وابن جرير عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا يصلى لأطآن عنقه – فانزل الله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا . ويجوز أنها نزلت فى «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» فقد قالا للنبى صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك . فقال عتبة أنا أزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر . وقال الوليد أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت .

والمعنى : ولا تطع من هؤلاء الكفرة الفجرة من كان «آثما» منغمسا فى شهواته غارقا فى الموبقات «أو كفورا» أي ولا تطع كذلك من كان مبالغا فى الكفر والضلال لا ينزجر ولا يرعوى . والآثم هو الفاجر بأقواله وأفعاله . والكفور هو الجاحد قلبه ولسانه .

وصيغة كفور : من صيغ المبالغة ومعناها المبالغ فى الكفر والجحود .

فإن قلت : كلهم كانوا كفرة فما معنى القسمة فى قوله تعالى «آثما أو كفورا» .

قلت : معناه لا تطع منهم من كان فاعلا لكل إثم داعيا لك إليه أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه ، لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر فنهى عن أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث .

ولذا قال الزجاج : إن «أو» هنا أؤكد من الواو لأنك إذا قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص فإن أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل لأن يعصى ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معا .

المقصود : من هاتين الآيتين تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتيئيس المشركين من استجابته عليه السلام لأى مطلب من مطالبهم الفاسدة .

ثم أرشد سبحانه وتعالى إلى ما يعينه على الصبر والثبات فقال :

﴿واذكر اسم ربك﴾ : أى صل لربك وأكثر من عبادته وطاعته والمراد دوام الرسول على الصلاة لا أنه ترك الصلاة حتى يؤمر بها .

﴿بكرة وأصيلا﴾ : أى صل لربك أول النهار و«البكرة» وقت من أوقات النهار وهو أوله ومنه باكورة الفاكهة والأصيل وهو العشى وهذه إشارة إلى صلاة الصبح وصلاة العصر . ويجوز أن يكون المراد ببكرة صلاة الفجر والمراد بأصيلا صلاة الظهر والعصر .

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ : أى ومن الليل فصل له سبحانه وتعالى متهجدا مستغرقا فى مناجاته . وهذه الآية محتملة للفرض وهو المغرب والعشاء فإنهما وقتان من أوقات المصلى وصلاتهما من صلاة الليل و«من» تبعيضية أى اسجد له .

بمعنى صل له بعض الليل وباقيه تستريح فيه بالنوم .

والسجود : مجاز عن الصلاة بذكر الجزء وإرادة الكل وحمل ذلك على صلاتى المغرب والعشاء يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة . وذلك كقوله تعالى **«ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»** وكقوله تعالى **﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾** وكقوله **﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** وكقوله **{ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾**

﴿وسبحه ليلا طويلا﴾ : أي وأكثر من التهجد والقيام لربك فى جنح الظلام والناس نيام لقوله تعالى «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» .

والمقصود : أن يكون عابدا لله ذاكرا له فى جميع الأوقات ليلا أو نهارا ، فى الصباح وفى المساء بقلبه ولسانه ليقوى على مجابهة أعدائه وأعداء الله .

وتنوين : ليلا للتبعيض وأصل التسبيح التنزيه ويطلق على مطلق العبادة القولية والفعلية . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة .

ويجوز : أن يكون المراد بالتسبيح الذكر المطلق سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها. وأمر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أمر بالصبر على أذى المشركين وإفراطهم فى العداوة .

وأراد : سبحانه وتعالى أن يرشد نبيه صلى الله عليه وسلم إلى تركهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلا ونهارا بالصلوات كلها من غير اختصاص

وبالتسبيح بما يطيق على منوال قوله تعالى ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ :

ثم بعد تسلية النبى الكريم بين سبحانه وتعالى جانبا من الأسباب التى تجعله صلى الله عليه وسلم لا يطيع أحدا منهم وشرح له أحوال الكفرة المجرمين ثم قال تعالى منكرا على الكفار ومن أشبههم فى حب الدنيا والاقبال عليها وترك الآخرة وراء ظهورهم فقال : ﴿**إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا * نحن خلقناهم وشددنا أزرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا***﴾

﴿**إن هؤلاء يحبون العاجلة**﴾ : أى هؤلاء الكفار المشركين والمراد بهم أهل مكة لأنهم تركوا الآخرة للدنيا ، ويفضلون الدنيا على الآخرة وينهمكون فى لذائذها الفانية . فاترك أنت يا محمد الدنيا وأهلها للآخرة .

وفى هذا توبيخ: لأهل مكة والمراد بالعاجلة الدنيا .

﴿**ويذرون وراءهم يوما ثقيلا**﴾ : أى ويتركون خلف ظهورهم يوما ثقيلا عسيرا شديدا عظيم الأهوال والشدائد لا يعبئون به وهو يوم القيامة لأن شدائده تثقل على الكفار ويتركون الإيمان بيوم القيامة .

وكأنه : قيل لا تطعهم يا محمد واشتغل بالأهم من العبادة لأن هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا فاترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة .

قيل : نزلت فى اليهود فيما كتموه . أو فى المنافقين لاستبطانهم و«اختيارهم» الكفر وطلب الدنيا .

وسمى اليوم ثقيلا : لشدة أهواله وشدائده . ومع شدة هول ذلك اليوم الذى يجعل الولدان شيبا فهم لا يستعدون له ولا يحسبون له حسابا .

وفى الآيـة : توبيخ لكفار مكة وتجهيل لهم حيث آثروا الفانى على الباقى والعاجل على الآجل .

ثم بين سبحانه وتعالى مظاهر فضله وكرمه عليهم ومع ذلك أشركوا معه فى العبادة غيره لقولهم «**إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى**» فقال :

﴿**نحن خلقناهم وشـددنا أزرهم**﴾ : أى نحن وحـدنا وبقـدرتنا الذين خلقناهم وأوجدناهم من العدم وأحكمنا وأتقنا خلقهم بربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ومنحناهم السمع والأبصار والعقول ، وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطا عجيبا معجزا حتى أصبحوا أقوياء أشداء .

ويجـوز : أن يكون المراد «نحن خلقناهم» لا غيرنا أى أولا من طين ثم من نطفة .. «وشددنا أسرهم» أى خلقهم .

وهـذا : لا ينافى قوله تعالى في سورة النساء «**وخلق الإنسان ضعيفا**» لأن المراد كما قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد به الضعف عن الصبر عن النساء ولذلك أباح الله نكاح الأمة وتعدد الزوجات «مثنى وثلاث ورباع» .

﴿**وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا**﴾ : أى ولو أردنا إهـلاكـهم ثم بدلنـاهم بغيرهم خـيرا منهم يكـونون أعبد لله وأطوع . وفى الآية تهـديد ووعيـد فنحن وحدنا الذين خلقنـاهـم ونحن وحدنا الذين ربطنا مفاصـلهم وأعضاءهم ربطا متـقنا بديعـا ، ومع ذلك فإننا إذا شـئنا إهـلاكهم أهلكنـاهم وجـئنا بأمثالهم وأشـباههم فى شدة الخلق وبدلناهم تبديلا معجـزا لا يقدر عليه أحـد سوانا . ومن الآيات الشـبيهة لهذه الآية فى معناها قوله تعالى «**إن يشـأ يذهبـكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله علي ذلك قديرا**» وقـوله سبحانه «**إن يشـأ يذهبكـم ويأت بخـلق جديد وما ذلك علي الله بعزيز**» .

ويجوز : أن يكون المراد تبديلا بعد اهلاكهم ممن يطيع الله تعالى «يستبدل قوما غيركم» وهذا التبديل يكون فى نفس الوقت بديعا مطيعا لا ريب فيه وهو البعث كما ينبئ عنه إذن .

ثم ختم سبحانه وتعالى السورة الكريمة بالحض على طاعته وبالتحذير من معصيته فقال :

«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» : أى هذه السورة الكريمة بمعناها الدقيق ولفظها الرشيق موعظة وذكرى يتذكر بها العاقل وينزجر بها الجاهل . وفى تصفحها تنبيهات للغافلين وفى تذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه . وهذه الآيات التى أنزلناها عليك يا محمد تذكرة وموعظة للناس فمن شاء أن يتخذ إلى الله تعالى وسيلة وطريقة يتقرب بها إليه تعالى اتخذها لأنها خير هداية إلى رضاه سبحانه وتعالى .

والتعبير : بقوله **«فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا»** تحريض شديد على المسارعة إلى الطاعة لأن الله تعالى قد مكن الناس من ذلك حيث وهبهم الاختيار والعقول المفكرة وأرسل إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

ثم بين سبحانه وتعالى أن مشيئته فوق كل مشيئة فقال :

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ : أى وما تشاءون أمرا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته ولا يحصل شئ من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه وإرادته ولا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا إلا بمشيئة الله تعالى ، وإنما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره لذلك وما تشاءون الطاعة والتقرب بها وقتا من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله اتخاذ السبيل .

وذلك لبيان : أن مجرد مشيئتهم غير كافية فى اتخاذ السبيل . أى لا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالى إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا فى الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله تعالي .

وهذه الآية «وما تشاءون ....» جواب لقوله تعالى «فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» أى لا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا إلا بعد مشيئته تعالى .

﴿إن الله كان عليما حكيما﴾ : أى عالما بأحوال خلقه ولا زال حكيما فى تدبيره وصنعه يعلم علما أزليا من يستحق الهداية فييسرها له ومن يستحق الضلالة فيسهل له أسبابها وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

وهذا بيان : للكون مشيئته تعالى مبنية على أساس علمه الأزلى وحكمته والمعنى أنه تعالى مبالغ فى العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته . وأنه سبحانه مبالغا فى علمه فيعلم مشيئات العباد المتعلقة بالأفعال التى سألوها بألسنة استعداداتهم «حكيما» مبالغا فى الحكمة فيفيض على كل ما هو الأوفق باستعداده وما هو عليه فى نفس الأمر من المشيئة .

﴿ويدخل من يشاء فى رحمته﴾ : أى يدخل من شاء من عباده جنته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون يدخل فيها من علم فيه الخير حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة بسبب إيمانه وطاعته فهو سبحانه الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . «رحمته» جنته لأنها تنال برحمته وفضله لا بعد له .

وهذا بيان لأحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، وهو الذى يصرف مشيئته نحو إتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة .

﴿والظالمين أعد لهم عذابا أليما﴾ : أى وأما الظالمين الكافرين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها والذين صرفوا مشيئتهم إلى غير طاعة الله تعالى ، الظالمين لأنفسهم الذين علم الله أزلا فيهم ميلهم للشر فقد هيأ لهم عذابا شديدا مؤلما فى دار الجحيم .

نسأل المولى جل فى علاه أن يتقبل منا الأعمال الخالصة لوجهه الكريم وأن يجعلنا من أهل كرمه وعطفه وإحسانه وأهل رحمته وإحسانه وأن يدخلنا جنته بفضله لا بعد له إنه سميع مجيب .

مساء الثلاثاء فى طنطا ٧ ربيع آخر سنة ١٤٢٠هـ

٢٠ يوليو سنة ١٩٩٩م

حسن الشناوى